

واقع الحال

منذ مدّة كان الحديث عن توجّه الشباب الياباني نحو الثقافة الأمريكية، كما جرى الحديث عن توجّه شرائح من الشباب الخليجي إلى الثقافة ذاتها، وقد ظهرت مظاهر ذلك جلياً فيما سُمّي «بثقافة الشباب» وهو مصطلح يحتاج إلى إمعان نظر وكلام، ذلك لأنّ الشباب فئة في المجتمع وهم في حفاظهم على هويتهم مختلفون، وبالتالي تعتبر نسبة ثقافة الانسلاخ إليهم من الأخطاء، غير أنّ الشباب من ناحية أخرى هم حقيقة الفئة الأكثر تعرّضاً للانسلاخ والدوبان الثقافي بالنظر إلى الفئات الأخرى، وأنّذاك فالمقصود بالثقافة الغربية أو الأمريكية، هو في الحقيقة مجرد ظاهرة ممارسة لا ظاهرة فكر أو فلسفة. فالشباب الخليجي الذي يمتلك الهاتف النقال، والسيارة الفخمة والفيديو، والذي يستعمل الغناء الغربي والألفاظ الإنجليزية والموسيقى الصّاخبة و.. و.. هو في الحقيقة عنصر سالب مستجيب لمتطلبات غريزته المتطابقة مع المعروض، وبذلك فالتكنولوجيا عنده طريقة للإشباع الغريزي لا للاغتراب أو الهجرة الثقافية، فالشباب ذاته تجده يقرّ في نفسه بانتمائه لأمتّه وبإجلاله لثوابتها ورموزها

ومقدّساتها، وأنداك فالثقافة بمسمّاها الجوهرية لم تُمسّ عنده. إنّما الذي مُسّ هو الواقع المعيشي العملي، وكما يفرّق علماء الشريعة بين العمل والاعتقاد وبين العاصي المستحلّ لمعصيته وبين العاصي غير المستحلّ فإنّ المفكرين أيضاً وجب أن يفرّقوا بين المتلبّس بالمظهر المادي وبين التّاكر لثقافته وهويته المتقمّص لهوية دخيلة.

ثمّ إنّ الحديث عن ثقافة أمريكية في حدّ ذاته خطأ، ذلك لأنّ التعبير الغريزي اللا منضبط لا يعتبر ثقافة فالانحلال الخلقي، وعدم الالتزام بالأديان لا يعتبر ثقافة وكلّ ما في الأمر أنّ إنسان أمريكيّ أو إنسان الغرب عموماً كان سبّاقاً في التّعرّض لطغيان المادّة. إنّ الأمر شبيه بالحديث عن الالتزام عند أديب لا يكتب إلا في الجنس والكفر، إنّ هذا لا يعتبر التزاماً لأنّ عنصر المجاهدة متنفّ هنا.. والأمر لا يعدو أن يكون اتباعاً للغرائز الترابية..

غير أنّ المشكلة تكمن في التّقلّة الحادّة عند شبابنا في الخليج، وهي نقلة من الأصل الثقافي الذاتيّ إلى الفرع الثقافي الذاتيّ والذي هو في حدّ ذاته الأصل الثقافي اللا ذاتيّ، وحين نتكلّم عن الأصل الذاتيّ فإننا نقصد به بالفعل الأصل «الثقافي»، أما حينما نتكلّم عن الفرع الذاتيّ والذي هو الأصل اللاّ ذاتيّ فإننا نسّميه ثقافياً تجاوزاً.

وإذن فنحن أمام نمطين من الثقافة، النمط الأصليّ الذاتيّ المأخوذ

من التّراثية الزمانيّة أباً عن جدّ، والفرع المنتقل إليه والذي هو أصل عند الآخرين (الغرب)، وسبق أن قلنا أنّه لا يمثّل ثقافة بقدر ما يمثّل «لا ثقافة»..

إنّ التزام الغربيين، بنمط معيّن من السلوك هو نتيجة حتميّة لسقوط قوامة الدّين والأخلاق أمام طغيان الماديّة القائمة على «الاستمتاع» الأقصى بالتكنولوجيا دون قيد أو حدّ. ولم يأخذ المجتمع الغربي هذا الأمر عن غيره تقليداً، لذلك كان هو التّمودج المثال المعروض عالمياً للاقتداء السّالب.. أمّا التّمودج الآخر المقتدي فهو «صورة» أو «صدى» المثال النمودجي.. وأنّذاك فهو نمودج متأخر زمنياً عطّل التوارث السلوكي التّاريخي الممتد إلى أسلافه، ليقم مكانه التوارث السلوكي المكاني (التقليد للآخر الغربي).

